2

الباب الثاني

نشأة اللغة العربية الفصحى وخصائصها

تمهيد:

من المعلوم أن اللغة الفصحى (أي اللغة الأدبية) التي تُعدُّ اللغة المعيارية ، لأية أمة من الأمم، ليست هي اللغة الوحيدة، التي يتكلم بها أبناء هذه الأمة، حيث يوجد إلى جانب هذه اللغة مجموعة من اللهجات المحلية أو الاجتماعية أو اللغات الخاصة "هذه اللغات وتلك اللهجات تسير كلها جنبًا إلى جنب لا في الأقاليم وحدها، بل داخل المدن الكبرى أيضًا، ففي جميع العواصم الكبرى الراقية، نجد لغات الصالونات الأدبية، ولغات العلماء المثقفين وغيرهم، كما نجد لغات العمال والعاميات الخاصة، التي تتكلم في حواشي المدينة وقد تختلف هذه اللغات بعضها عن بعض إلى حد أنه قد يعرف الإنسان إحداها دون أن يفهم الأخرى ([1]).

وينبغي أن نقدم في هذا الصدد مفاهيم مصطلحات تلك اللغات على شتى أنواعها، لنتعرف الفرق بين اللغة الفصحى ، واللغة الدارجة واللغة الخاصة وغيرها من المصطلحات.

- **اللغة الفصحى (المعيارية)** Standard Language

اللغة الفصحى، هي "ذلك المستوى الكلامي ، الذي له صفة رسمية والذي يستعمله المتعلمون تعليمًا راقيًا (مثل لغة الملك أو الملكة في بريطانيا) وتسمى كذلك باسم (Recevied Standard) وغالبًا ما تكون اللغة

---

(١) المدخل إلى علم اللغة ١٦٥

المعيارية في أول الأمر لهجة محلية، تنال شيئًا من التمجيد أو التقدير، ويُعترف بها كلغة رسمية لسبب من الأسباب، كأن تكون لهجة منطقة من البلد، اتخذت مقرًا للحكم مثل : (الفرنسية الباريسية) أو لهجة مجموعة من الناس أصبح لهم سيطرة عسكرية مثل: (القشتالية الأسبانية) أو لهجة منطقة لها زعامة أدبية مثل: (التوسكانية في إيطاليا).

- **اللهجات:** Dialects

وهي عبارة عن "مستويات محلية للكلام، تبعد إلى درجة كبيرة أو صغيرة عن المستوى المعياري، ولكنها يمكن تعريفها – أحيانًا- بالرجوع إلى الأصول التاريخية، باعتبارها تُكون كلاً موحدًا، وتتميز بأنها تتمتع بظهورها في صورة مكتوبة، وأن لها أدبًا، له جذوره البعيدة".

اللهجة المحلية: Patois

وهي تلك التي تشير إلى هذا النوع من اللهجات الأقل، كأن تكون لهجة قرية واحدة ولا يظهر هذا النوع من اللهجات في شكل كتابي.

اللغة الخاصة:

ويمكن أن نقسمها إلى قسمين اثنين هما:

١ - **لغات الحرف والطوائف** Jargon

وهي تلك اللغات التي يتعامل بها أرباب المهن والأعمال والحرف المختلفة، تسعفهم في عملية التواصل فيما بينهم، أو فيما بينهم وبين غيرهم كذلك.

٢-لغات الطوائف الشاذة:

وهي تلك اللغات التي يتعامل بها الخارجون على المجتمع بسلوكهم الاجتماعي المشين والوضيع، وهو مستوى كلامي وضيع- أيضًا- وتتميز هذه الطوائف بعدم تمتعها بالتعليم، وقد تنتشر تلك اللغات الخاصة بهم على مستوى المجتمع الذي يعيشون فيها، وتتفاوت درجات تلك اللغات، فهناك ما يكون ممعنًا في الابتذال أو الانحطاط اللفظي (Nulgrisms) أو الكلام دون المستوى، أو الأقل قيمة، بحيث لا يتخذ معيارًا يحتذى: (Substandard Speech) وهناك نوع ثالث، يسمى بالعاميات: (Calloqualism) .

وينبغي أن نذكر أن آراء العلماء في هذا التقسيم ليست سواء، فهناك بعض العلماء الذين يرون أنه ليس هناك ثمة حدود تفصل بين اللغات المشتركة (اللغات الفصحى) وبين اللهجات أو المستويات اللغوية الأخرى، في حين يشدد فريق آخر من العلماء على وجود هذه الحدود بين اللغة الفصحى وبقية المستويات اللغوية.

ففي حين نجد اللغوي "جاستون باري" – من علماء الفريق الأول يقول بعدم وجود حدود بين اللغة الفصحى وبقية المستويات – يقول: "ليس هناك أي حد حقيقي، يفصل بين فرنسي الشمال وفرنسي الجنوب، فصور التكلم الشعبي عندنا، تمتد على أرض الوطن، من طرف إلى آخر، كأنها بساط نضحت ألوانه المتنوعة، في كل منطقة منه، بعضها على بعض، وأصبحت درجات لا يكاد يتميز بعضها عن بعض([1]).

وينادي بهذا الرأي أيضًا "يوهان شمت" في نظريته المسماة "نظرية الأمواج" تلك النظرية التي ترى : "أن كل ظاهرة لغوية، تمتد على مسطح القطر امتداد الأمواج، وأن كل موجة في تقدمها التدريجي غير المحسوس ليس لها حد معين" ([2]).

ولكننا نجد على الجانب الآخر. فريقا من العلماء يرون إمكانية التقسيم ، ويشدد بعضهم قائلاً: "من حقنا أن نتكلم عن وجود لهجات، كلما رأينا عددًا من الخطوط، التي تفصل بين الخصائص، ينطبق بعضها على بعض، ولو بشكل تقريبي، فهناك لهجة محددة في كل منطقة، يلاحظ فيها وجود خصائص مشتركة، وحتى عندما لا يمكن رسم خطوط دقيقة للفصل بين منطقتين متجاورتين، فإنه يبقى أن كلاً منهما، تتميز في مجموعها

---

(١) اللغة لـفندريس ٢١٢

(٢) اللغة، لـفندريس ٢١٢

ببعض السمات العامة، التي لا توجد في الأخرى، كالبروفنسالية والفرنسية، ليستا في حقيقة الأمر، إلا لهجتين من لغة واحدة، وإذا لم يكن في وسعنا أن نرسم على الخريطة خطًا محددًا يبين أين تنتهي الفرنسية وتبدأ البروفنسالية ، فإن كلاً من اللهجتين في مجموعهما قد اشتملت على خصائص عديدة واضحة إلى حد يجعلنا في مأمن من الخلط بنيهما ([1]).

ويرى د/ أنيس أن العلاقة بين اللغة واللهجة، هي العلاقة بين العام والخاص، ويؤكد ذلك بقوله: "فاللغة تشتمل عادة على عدة لهجات، لكل منها ما يميز ، وجميع هذه اللهجات ، تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية والعادات الكلامية، التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات"([2]). أما ماريوباي ، فإنه يرى، أنه يصعب في الأعم الأغلب، الفصل بين كل من اللهجة واللغة، حيث يقول: "الخط الفاصل بين اللغة واللهجة، يصعب في غالب الأحيان تتبعه ورسمه، والتفاهم المشترك، لا يعرض إلا جزءًا من الإجابة، إذ إنه من المشاهد أن الاتصال بين أبناء مجموعتين، يتكلمون لغتين مشتركتين رسميتين ذواتي أصل واحد، مثل:

---

(١) اللغة لـڤندريس ٣١٢

(٢) في اللهجات العربية ١١

الإيطالية والأسبانية قد يكون أسهل منه، بين أبناء لهجتين تنتسبان إلى لغة رسمية واحدة"([1]).

ويمكننا بعد هذا العرض، لوجهات نظر العلماء في هذه المسألة، أن تؤكد أن كل لغة، كانت يومًا مالهجة من لهجات كثيرة للغة من اللغات، ثم حدثت عوامل كثيرة، أدت إلى موت اللغة الأم أو اندثارها وانتشار كل نبت من نباتها في بقعة من الأرض، مكوِّنة لغة لها خصائصها ومميزاتها ، التي تتفرد بها عن أخواتها وقد حدث ذلك في اللغات السامية المختلفة، وكلها كانت لهجات للأم التي ماتت واندثرت من قديم الزمان. وهذه هي اللاتينية، تعد أما للهجات الرومانية المختلفة، التي أصبحت بعد انشار اللاتينية لغات لها كيانها وخصائها، وهي: الإيطالية والفرنسية والأسبانية، وكل واحدة من هذه اللغات، شملت مساحات واسعة من الأرض، فانقسمت بدورها إلى لهجات، تمامًا كما حدث للغات السامية ، ومنها العربية التي انقسمت كذلك إلى لهجات مختلفة في الماضي والحاضر"([2]).

---

(١) أسس علم اللغة ٢١١

(٢) فصول في فقه العربية

نشأة اللغة العربية

الفصل الأول

نشأة اللغة العربية الفصحى

ينبغي أن ندرك أن اللغة الفصحى – أية لغة – كانت في أصل نشأتها ، مجرد لهجة من اللهجات، وأن هذه اللهجة، قد اندثرت مع الزمن، وتحولت إلى لغة فصحى، لها خصائصها ومميزاتها، وهذا هو حال اللغة العربية الفصحى، بيد أن غموضًا واختلاطًا، يشوب العلاقة بين العربية الفصحى ولهجاتها القديمة، ويرجع ذلك إلى الاهتمام البالغ بدراسة العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم ، والإهمال الكامل والواضح لدراسة اللهجات القديمة، حيث إنها لم تحظ إلا بروايات مبتورة، عن بعض خصائص هذه اللهجة أو تلك وليس من أهداف تلك الروايات أن نتعرف خصائص تلك اللهجات لذاتها أو لإلقاء الضوء عليها ولكن الهدف الحقيقي لهذه الروايات ، إنما ليفسروا بها قراءة قرآنية، أو شذوذًا في الظواهر اللغوية، سواء أكانت متعلقة بالشعر أو بالنثر.

ولعل هذا الخلط في تدقيق العلاقة بين العربية الفصحى واللهجات العربية القديمة، يرجع إلى النقص في معلوماتنا عن تلك اللهجات، فجاءت دراسات اللغويين في بيان تلك العلاقة، وهي تفتقر إلى الدقة والوثائق

والحقائق ، بل إنها- حقيقة- دراسات تعتمد على مجرد الفروض أو التخمينات.

وحول هذا الخلط ، يرى **نولدكه** Nöldeke أن الفروق صغيرة بين اللهجات العربية، الشائعة في جزء من الجزيرة العربية (الحجاز ونجد ومنطقة الفرات) وأن الفصحى تعتمد على هذه اللهجات على سواء أما **جويدي** guidi فإنه يرى أن العربية الفصحى خليط من لهجات نجد والمناطق المجاورة وأنها لهجة بعينها من هذه اللهجات! ويذكر **نللينو** Nallino أن عاميات قبائل مَعَد، توحدت وكونت العربية الفصحى. ويرى **فيشر** Fischer أن العربية الفصحى، تمثل لهجة معينة، غير أنه لم يعينها ! أما فوللرز vollers فإنه يرى أن العربية الفصحى، تعتمد على لغة البدو، في نجد واليمامة، غير أن الشعراء غيَّروها كثيرًا، في حين تكلم باقي الجزيرة لغة مختلفة تمامًا تعد سلفًا العاميات الحضرية الحديثة، أما كل من **بروكلمان** Brockelmann **وفتستيان** Wetzstein فإنهما يدعيان أن العربية الفصحى بصورتها التي نعرفها، لم تكن لغة كلام أبدًا أما لاندبرج Landberg فإنه يرى أنها كانت لغة عصر غير محدد، وأن قوالبها النحوية، يغلب أن تكون من صنع الشعراء كما يقارنها مارسية Marcais بلغة هومير المصنوعة ([1]).

---

[1] (١) انظر: فصول في فقه العربية ٧٦- ٧٧

وفي هذا الصدد ، يذكر (**شبيتالر**) أن : (**يوهان فك**) قد ذكر في الفصل الأول من كتابه: "العربية" وفي غير موضع "أن التصرف الإعرابي، كان حيا في عنفوانه لدى البدو، في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وقد اعتمد في ذلك على الأخبار التي رواها العرب في هذا الشأن، وعلى البقايا المتجمدة من هذا التصرف الإعرابي في لهجات البدو المعاصرة"([1]).

ويرفض (**شبيتالر**) هذا الرأي، عند يوهان فك ويميل إلى صدق تلك الأخبار الواردة عن البدو المعاصرين، حيث يقول: "فإنني أميل إلى القول بأن القول بأن العربية، كما نعرفها من الشعر العربي القديم تساوي تمامًا في كل شيء لغة البدو على الإطلاق" ويحتج لفرضه هذا بقوله: "وهذا يعني ببساطة ، أن هذه الأخيرة، لا تحتاج إلى الإيقاع والوزن، لكي تصبح شعرًا"([2]) ويذكر شبيتالر أن العكس هو الصحيح في هذه المسألة، وأن اللغة العربية ، قد أصابها هذا التصرف الإعرابي، منذ عصور سحيقة، قبل العصر الذي نعرفه فيها: "فإنه لا شيء في اللهجات الحديثة- على الأقل- في ميداني الأصوات والبنية، إلا وله أصل مباشر أو غير مباشر، في العصر الإسلامي المبكر، بقدر ما نراه في الخط أو في عبارات المعاصرين من الرواة،

---

(١)العربية ٦

(٢)العربية ٧

وهذا يعني أن اللهجات في فترة تمتد أكثر من ١٢٠٠ عام، لم تظهر فيها تطور ملحوظ في أية مسألة من تلك المسائل المهمة، كترك التصرف الإعرابي في الاسم والفعل" ([1]).

ويذكر – أيضًا – أن القول بأن "اللهجات العربية القديمة، تتفق في كل شيء مع العربية الفصحى فإنه يجب بالطبع أن يجتهد في تأويل النصوص التي لا تلائم هذا الرأي أو يحكم بشذوذها"([2]).

والأمر المعتبر في هذه المسألة، أن هذه البقايا من اللهجات الواردة، كانت بالفعل موجودة وتعيش بجانب الفصحى، وهذا هو بالفعل رأي "هارتمان" أخذه عهن الموشح ([3]).

أما اللغة العربية الفصحى، فهي نفسها اللغة العربية القديمة الحقيقة، والتي ترجع في وجودها إلى ما قبل التاريخ "والتي ترفعت عن لهجات الخطاب منذ زمن، ورويت لنا كابرًا عن كابر، في نصوص محددة تمامًا، هي تلك اللغة التي يمكن أن تعرف بقول الباقلاني: ([4])" أشعار أهل الجاهلية،

---

(١) العربية ٧

(٢) العربية ٨

(٣) العربية ٨

(٤) الموشح ٢١٦-٢١٧

وكلام الفصحاء والحكماء من العرب، كلام الكهان وأهل الرجز والسجع وغير ذلك من أنواع بلاغتهم وصنوف فصحاتهم" ([1]).

ويقرر شبيتالر في هذا الشأن، أن اللهجات العربية، والعربية الفصحى، تنزلان بحسب قيمة كل منهما منزلتين مختلفتين تمامًا، وتمثلان طاقتين لغويتين مختلفتين، وتُعدُّ إحداهما بالنسبة للأخرى بمنزلة العامية، ولغة الحياة العامة من الفصحى أو اللغة الأدبية على نحو ما" ([2]).

أما جاير Geyer فإنه يرى أن الفصحى هي لغة الطبقة الراقية من المجتمع، في مقابل العامية، التي هي لغة الطبقة الدنيا أو السوقة، حيث يقول: "العامية التي يتكلمها السوقة" بإزاء لغة الخاصة والطبقات الراقية والمثقفين ولغة الأدب ([3]).

أما بريتوريوس Parotorius فإن اللغة الفصحى عنده، هي تلك اللغة الفنية الخالصة، وهذه اللغة الفصحى تعلو وتتميز على سائر لهجاتها، على الرغم من كونها تجري على ألسنتهم ومن ثم فإنها لم تخل من تأثير اللهجات عليها ([4]).

---

(١) اعجاز القرآن على هامش الاتقان، للسيوطي ١/ ٣١

(٢) العربية ٨

(٣) في مجلة GÔttingsche Gelehrtc Anzeigen في نقده لكتاب فوللرز Vollers ١٩٩٠/٩/١٦م .

(٤) انظر مجلة LCBL ١٤٤ سنة ١٨٩٩ وانظر كذلك: تاريخ الأدب العربي لكارل كلمان GALS 16

ويذكر شبيتالر أن ذهاب اللغويين العرب إلى البدو لدراسة لغتهم، لا يعني افتقار الحضر لهذه اللغة (العربية الفصحى) أي لغة الشعر العربي القديم، تلك اللغة – حقًا- ظلت لفترة طويلة، تروى على ألسنة هؤلاء البدو، وعلى الرغم من ذلك فإن العربية الفصحى لا تعني بحال من الأحوال، أنها هي لغة التخاطب عند البدو، وأن مهمة هؤلاء اللغويين ، كانت مركزة على أخذ اللغة الفصحى عن هؤلاء البدو دون لهجات تخاطبهم.

ولا يمكن بحال – أيضًا- تفسير ذهاب هؤلاء اللغويين إلى البدو، على أنه لا وجود للغة بلا إعراب عند البدو على الإطلاق!! وأن لغة تخاطبهم ، كانت هي الفصحى، فالحق أن هذا أمر لا يمكن قبوله، ولا يستند إلى حجة أو دليل.

ويقول شبيتالر : "ومن غير المقبول ... أن تكون لغة البدو المشتركة الناشئة في أماكن مختلفة، بسبب اجتماع القبائل والعشائر المتباينة في حياة مشتركة، ومجتمعات مغلقة أساسًا، خرجت منه عربية القرون المتأخرة الفصحى، ولا أستطيع الربط بين لهجاتهم، وما وضعه النحاة المتأخرون من قواعد العربية ([1]).

ويقول فك: "إن مقام العربية باعتبارها اللغة المعتمدة للعلم والأدب، قد بقى حتى هذا العصر الحديث، ثابت الأركان، وطيد الدعائم

---

(١) العربية ١٠

ولم يجرؤ إلا بعض دعاة الإصلاح الإسلاميين على توجيه نقدهم اليوم- دون جدوى – إلى عقيدة اللغة العربية الفصحى. هذه العقيدة التي جعلت من العربية الفصحى نموذجًا مفروضًا ومثلاً أعلى يقتفيه كل كاتب عربي، جعلت من العسير بمكان أن نحصل على صورة واضحة للنمو والتطور الذي أصاب العربية، ككل لغة حية، في مدة تربو على ثلاثمائة وألف عام، وقد تكفلت القواعد التي وضعها النحاة العرب في جهد لا يعرف الكلل، وتضحية جديرة بالإعجاب، لعرض اللغة الفصحى وتصويرها في جميع مظاهرها من ناحية الأصوات والصيغ وتركيب الجمل ومعاني المفردات، على صورة محيطة شاملة، بحيث بلغت القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال، لا يسمح بزيادة المستزيد، ولا تزال القواعد الأساسية المذكورة تعد اللغة العربية لغة متصرفة بمعنى اللغة، محافظة على نهايات الإعراب والتصرفات المختلفة، كالضمة في حالة رفع الاسم والفعل، والكسرة في حالة خفض الاسم، والفتحة في حالة نصب الاسم والفعل الخ" (١) ويذكر "فك" أن الإعراب الذي زال على ألسنة المتكلمين، سواء من يقطن منهم في الحضر أم في المدر، هو الذي يفرق الآن عند المثقفين العرب بين العربية الفصحى وغيرها من مستويات الكلام العادي . "ولما كانت علامات الإعراب هذه قد تلاشت منذ أجيال عديدة في العالم العربي كله، سواء على لسان عامة الشعب، في القرى والمدن أم في شتى أساليب الكلام

(١) العربية ١٤

الجاري على ألسنة الطبقات المثقفة، بل في لهجات البدو أنفسهم، فقد صار الإعراب هو الفارق الذي يميز عند المثقفين بين العربية الفصحى، وجميع القوالب والأساليب المولدة، حتى اللهجات الدارجة واللغات العامية([1]).

وبعد، فإن هذه الآراء العديدة لعلماء الغرب، من المستشرقين وغيرهم حول نشأة اللغة العربية الفصحى، وعلاقتها باللهجات ، إنما تعتمد على مجرد الافتراض والتخمين ، وأنها لم تستند إلى أسانيد تاريخية أو نقلية، ومن ثم فإننا تذكرها من قبيل عرض وجهات النظر، مع إعمال الفحص والبحث، ولسنا نقبلها هكذا على علاتها، كلها أو بعضها.

ولسنا بذلك نقلل من شأن هذه الآراء، بل العكس هو الصواب ، فإنها تمثل منطلقًا للباحثين والدارسين من أجل الوصول إلى الحقيقة ، حول هذه القضية الهامة.

أما إذا ما انتقلنا إلى العلماء العرب، فإننا نجدهم جميعًا، يتفقون اتفاقًا اجماعيًا، على أن اللغة العربية – عندهم- هي لغة المدر من البدو العرب ([2]) وهم يرون أن العربي البدوي لا يخطئ في التحدث بالعربية الفصحى، ولا يطاوعه لسانه إن أراده على الخطأ، فهو أذن الحكم الفصل في العربية الفصحى.

---

(١) االعربية ١٤

(٢) انظر المزهر ٢١١/١ .

وعندما نفحص ما وردنا من نصوص عربية، فإننا نجدها وقد وردت في صورتين اثنتين:

١- **صورة اللغة الأدبية:**

وهي تمثل ما نسميه بالأدب الجاهلي، من أشعار وخطب، وحكم وأمثال، وهذه الصورة ، هي ما نسميها باللغة العربية الفصحى.

٢- **صورة اللغة الشعبية:**

ويمثل هذه الصورة ما ورد إلينا متناثرًا في كتب اللغة والأدب والنحو، عن لهجات القبائل المنتشرة في أنحاء الجزيرة العربية.

أولاً: اللغة العربية الفصحى

ولعل نظرة فاحصة في الصورة الأولى، أي اللغة الأدبية، تؤكد أن تلك الصورة ، قد جاءت – إلى حد كبير – لغة منسجمة ، وقد استوعبت تلك الصورة قرائح الشعراء، وفصاحة البلغاء ، وحكمة الحكماء ، فعبروا بها عما يجول بخواطرهم ، سواء من كان منهم من قريش أم من غير قريش.

إذن فاللغة العربية الفصحى، هي تلك الصورة الأدبية الرفيعة، التي تمثل فصاحة الأدباء والبلغاء من الشعراء والحكماء ، في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، اشتركوا جميعًا في تكوينها، بإبداعاتهم وتعبيراتهم ، وصارت بالنسبة لهم البوتقة التي يلتقون جميعًا فيها... وكما يقول فندريس: "خاصية اللغة المشتركة الأساسية ، أنها لغة وسطى، تقوم بين لغات أولئك الذين يتكلمونها جميعًا"(١) وكما هو الحال في جميع أنحاء العالم تنشأ اللغات المشتركة، في أماكن متميزة، في ظل ظروف وأسباب تساعدها على تكونها وازدهارها ، بجانب اللهجات الأخرى، فإن اللغة العربية الفصحى، قد ازدهرت وترعرعت في أحضان أم القرى، مكة المكرمة، ولقد تضافرت لهذه النشأة في هذا المكان الآمن بالكعبة المشرفة، عوامل عديدة، **هذه العوامل هي:**

---

(١) اللغة لفندريس ٣٤١

- **العوامل الدينية:**

يجب أن نعلم أن مكة المكرمة، كانت منذ عهود سحيقة ، قبل الإسلام بيئة مقدسة، يفد إليها العرب من كل فج عميق، ليحجوا إليها.. مصداقًا لقول الحق سبحانه تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الحج) إن هذا الاجتماع الكبير، لقبائل العرب المتناثرة في أنحاء الجزيرة العربية في هذه البقعة الطاهرة المباركة، حيث يختلط هؤلاء العرب مع إخوانهم القرشيين في مكة، ويتأثرون بسبب الإقامة بين ظهراينهم، يتأثرون بلغتهم، وينشأ عن هذا الاختلاط اللغة المشتركة فيما بينهم، وإن ما حدث من تأثر الأعراب، بلغة قريش، في أثناء وجودهم بمكة في زمن الحج هو "كما يحدث للريفي الذي يحضر إلى القاهرة، ويعيش فيها مدة- مثلاً- فإنه سرعان ما يتأثر باللهجة القاهرية قهرًا عنه، ودون شعور منه"(١).

- **العوامل الاقتصادية:**

لم يكن وجود الحجيج من قبائل الجزيرة العربية مقصورًا على الحج فحسب، وإنما ليشهدوا تلك الأسواق، التي كانت تقام حول مكة للبيع

(١) فصول في فقه العربية ٧٩

والشراء، ولم يكن البيع والشراء، هو الوظيفة الوحيدة لهذه الأسواق فقد كانت ملتقى لندوات أدبية، لشعراء العرب وخطبائهم ويلقى فيها الشعراء أروع ما أبدعت قرائحهم ، يصول فيها الخطباء ، ويجولون ، وكان سوق عكاظ من أشهر هذه الأسواق، التي تظل عامرة بلقاء الأدباء قرابة شهرين متتابعين، وكانت عكاظ قريبة من مكة، فكان أهل مكة يختلطون بهؤلاء الوافدين ، فيسمعون منهم أبدع ما تجود به عقولهم وأفكارهم، وفي هذه البيئة ، نبتت البذرة الأولى للغة المشتركة، بين هذه القبائل العربية جميعًا "ونمت وازدهرت وفود القبائل إلى هذه الأسواق، وقد حملت هذه الوفود تلك اللغة المشتركة، إلى مواطن القبائل المختلفة، وهم أولئك الشعراء والخطباء...." (١).

لقد كانت رحلة الشتاء والصيف، حيث يتوجه أهل مكة بتجارتهم إلى اليمن في الشتاء، وإلى الشام في الصيف من أهم عوامل الانتعاش والثراء الاقتصادي، لقد أتاحت لهم هاتان الرحلتان- إلى جانب البيع والشراء- فرصة الاختلاط بهؤلاء الأقوام، وكان لهذا الاختلاط أثر كبير في تأثرهم وتأثيرهم في لغات هؤلاء وهؤلاء ولاشك أن هذا التأثير وذاك التأثر قد أسهم في بناء اللغة المشتركة.

---

(١) فصول في فقه العربية ٧٩

- **العامل السياسي:**

تتضح معالم هذا العامل من خلال العاملين السابقين، حيث أكسب العامل الديني لأهل مكة وقريش- خصوصًا-نفوذًا سياسيًا وسلطانًا قويًا، ومهابة في أعين الناس كما أن العامل الاقتصادي، قد أكسبهم ثراء وغنى، مكنهم هذا الثراء من بسط نفوذهم السياسي وأهل هذا النفوذ السياسي للغة قريش أن تأتي في مقدمة لغات العرب ولهجاتهم ، ولتصبح هي اللغة المشتركة لجميع قبائل العرب.

ثم نزل القرآن الكريم بلغة قريش، التي كانت قد أصبحت لغة العرب الفصحى (اللغة المشتركة) فزادها نموًا وازدهارًا وأكسبها مهابة وتشريفًا "ولسنا نوافق القائلين بأن نزول القرآن الكريم ، هو الذي وحد العربية ، وأوجد اللغة العربية المشتركة، لأن هذه اللغة نمت وازدهرت ، قبل نزول القرآن الكريم بها، ولذا تخيرها القرآن ونزل بها، ليفهمه جميع الناس في شتى القبائل العربية ([1]).

وبعد أن انتهينا من إلقاء الضوء على العوامل المختلفة، التي جعلت لهجة قريش ، هي وحدها، التي تتميز عن بقية لهجات العرب، في أنحاء الجزيرة العربية – لتصبح مؤهله للقيام بدورها في كونها اللغة المشتركة

---

(١) فصول في فقه العربية ٧٩

لجميع قبائل العرب –**يجدر بنا أن نقدم الصفات المختلفة التي تميز اللغة العربية الفصحى، وهذه الصفات هي:**

- **الصفة الأولى:**

تعد اللغة العربية الفصحى، فوق مستوى العامة من الناس، حيث لا يستطيع هؤلاء العامة، أن يصطنعوها في حديهم وخطابهم "وأنهم إذا سمعوا متكلمًا بها([1])، رفعوه فوق مستوى ثقافتهم ، فاللغة المشتركة العربية، التي وردت بها الآثار الأدبية، والتي نظم بها الشعراء، وخطب بها الخطباء، لم تكن في متناول جميع العرب بل كانت في مستوى أرقى وأسمى، مما يمكن أن يتناوله العامة، فإنه حتى ذلك الإعراب، الذي هو أهم مميزات اللغة الفصحى، لم تكن كل العرب تقدر عليه ([2]) ويدلنا على ذلك نص أورده **أستاذنا الدكتور/ رمضان عبد التواب** من كتاب "نثر الدرّ" للوزير أبي سعد الآبى، يقول فيه: "قال أبو العيناء: ما رأيت مثل الأصمعي قط، أنشد بيتًا من الشعر ، فاختلس الإعراب، ثم قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول كلام العرب الدرج، حدثني عبد الله بن سوار أن أباه قال: العرب تجتاز بالإعراب اجتيازًا، وحدثني عيسى بن عمر، أن ابن أبي إسحاق قال: العرب ترترف على الإعراب، ولا تتفيهق فيه، سمعت يونس

---

(١) انظر : فصول في فقه العربية ٨٠- ٩٥

(٢) فصول في فقه العربية ٨٠

يقول: العرب تشام الإعراب ولا تحققه، وسمعت الخشخاش بن الحباب يقول: العرب تقع بالإعراب وكأنها لم تُرد وسمعت أبا الخطاب يقول: إعراب العرب الخطف والحذف، قال : فتعجب كل من حضر منه"(١) ولعل نظرتنا إلى القرآن الكريم، باعتباره النموذج الأمثل للغة المشتركة، يؤكد ذلك، فما يتسم به أسلوب القرآن الكريم من إعجاز وفصاحة وبيان، لدرجة أنه يتحدى فصحاء العرب وبلغاءهم في أن يأتوا ولو بآية من مثله، فوقفوا أمام هذا التحدي عاجزين ومن ثم، فإن هذا النموذج المعجز الأمثل لا يدركه فهمًا وتفسيرًا إلا الخاصة من ذوي العلم والبيان. ويقف العامي أمامه موقف العاجز عن تفسيره ، وإدراك إعجازه بيد أن هذا العامي يتلقى آيات الله البينات، فتملأ قلبه بومضات إيمانية، لا يدرك كنهها، فيطمئن مصدقًا بالإسلام مؤمنًا بالقرآن.. إنه إيمان العوام إيمان قلبي شفاف. إن عجز هؤلاء العوام وغيرهم عن إدراك تلك اللغة العربية الفصحى، ناهيك عن لغة القرآن الكريم ذلك الطراز الفريد في الإعجاز والبيان.. كما أن علو مستوى اللغة المشتركة، فوق مستوى العوام، هو صفة أساسية من صفاتها... فما بالنا إذا كان هذا المستوى الفريد، هو القرآن الكريم، لاشك أنه فوق مستوى العوام وغير العوام من الناس يقول الباقلاني : "وقد علمنا

(١) مخطوطة كوبر يللي ٧٦٥/٧ وكذا ورد مختصرا في ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، للزمخشري مخطوطة بدمشق ٣٢٦٣ ص ٤٥

تفاوت الناس في إدراكه ومعرفة وجه دلالته لأن الأعجمي لا يعلم أنه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه، وهو يحتاج في معرفة ذلك إلى أمور ، لا يحتاج إليها من كان هناك من أهل صنعة الفصاحة، فإذا عرف عجز أهل الصنعة، حل محلهم وجرى مجراهم في توجيه الحجة عليه وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن ما يعرفه العالي من هذه الصنعة، فربما حلّ في ذلك محل الأعجمي، في أن لا تتوجه الحجة، حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة عنه وكذلك لا يعرف المتناهى في معرفة الشعر وحده، أو الغاية من معرفة الخطب أو الرسائل وحدها- من عوز هذا الشأن، ما يعرف من استكمال معرفة جميع تصاريف الخطاب، ووجود الكلام، وطرق البراعة ، فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها، دون تحققه لعجز البارع في هذه العلوم كلها عنه فأما من كل متناهيًا في معرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة، فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه" (١).

- **الصفة الثانية:**

عدم انتماء اللغة المشتركة إلى بيئة محلية بعينها، فلا تكون لغة قبيلة أو جماعة بعينها، إذا إنها تتضمن خصائص اللهجات المحلية، فهي لغة

---

(١) إعجاز القرآن، للباقلاني ٢٥- ٢٦

منسجمة موحدة، لا تنتسب إلى بيئة خاصة، فلا يمكننا القول بأنها لغة قريش، أو أنها لغة تميم، أو أنها لغة هذيل، بيد أنها تُعدُّ مزيجًا من هؤلاء وغيرهم، تكونت لها شخصيتها وكيانها المستقل عن تلك اللغات أو اللهجات لكن ذلك لا يمنع أن تحتوي هذه اللغة الفصحى، بعض صفات اللهجات ، التي تصبح عضوًا منسجمًا مع بقية أعضاء كيانها الواحد.

إن قولنا بعدم انتماء اللغة المشتركة إلى بيئة بعينها، لا يقلل من شأن لهجة قريش، التي أسهمت بنصيب أوفر في بناء اللغة المشتركة الفصحى، ولا يمنعنا ذلك من القول – أيضًا – أن اللغة العربية الفصحى، هي لغة قريش.

ومن خلال عرضنا لهاتين الصفتين من صفات اللغة المشتركة يتأكد لنا أن اللغة العربية الفصحى ، لم تكن عند كل العرب، بحيث يتحدثها كل العرب، بغير شعور بخصائها، فاللغة العربية الفصحى، هي لغة الصفوة من علمائها وأدبائها وشعرائها وغيرهم ممن يُعنون بالفصاحة واللسن والبيان، وإنه كان للعربي العامي لهجته التي يتعامل بها مع إخوانه وعشيرته من أبناء قبيلته بل إن هؤلاء المشهورين بالفصاحة والبيان، كثيرًا ما كانت تغلب عليهم عاميتهم، فيقعون في اللحن والخطأ، ولقد شاع اللحن عند هؤلاء الخاصة من العرب ، حيث نجد الشعراء وهم من هم بين قبائلهم !

نجدهم وهم يلحنون في أشعارهم، فالإقواء الذي يعد من عيوب القوافي، هو في حقيقة أمره خطأ نحوي ! ولعل من أشهر هؤلاء الشعراء الذين وقعوا في هذه الخطأ، هو النابغة الذبياني ذلك الشاعر الجاهلي الذي طّبقت شهرته أنحاء الجزيرة حتى إنهم اختاروه حكمًا فيما بينهم في الأسواق الأدبية ففي قصيدته التي نظمها في المتجردة ، زوجة النعمان بن المنذر، التي مطلعها: (الكامل)

من آل مية رائحُ أو مغتدٍ عجلانَ ذا زادٍ وغير مزودِ

التي جاءت قافيتها محركة بالكسرة ، ثم نجده يقول: (الكامل)

زعم البوارحُ أن رحلتَنَا غدًا وبذاكَ خبرنا الغرابُ الأسودُ

وتلاحظ أن صواب الضبط لكلمة (الأسود) هو أن تكون محركة بالضمة، لكن المرجح أن النابغة كان ينطقها بالكسرة، ليتم له الانسجام الموسيقي في روى قصيدته!

ويقول ابن السكيت ، شارح ديوان النابغة: "قال ابن الأعرابي الأثرم: بلغنا أن النابغة كان أقوى في قوله: من آل مية رائح أو مغتد ، فورد يثرب، فأنشدها فقالوا له أقويت، فلم يعرف ما قالوا ، فألقوا على فم قينة لهم: وبذاك خبرنا الغرابُ الأسودُ ففطنِ فلم يَعُد وكذلك قوله: يكاد من اللطافة يفتدى ، فقالوا لها: تليه ومُدِّيه، فقالت: يفتدى، ثم قالت: الغرابُ

الأسودُ، ففطن، فقال النابغة: وردت يثرب، وفي شعري صنعة، وصدرت عنها وأنا أشعر العرب([1]).

كما أن بشر بن أبي خازم، كان من فحول الشعراء، وكان يقوى في شعره – أيضًا – فقد قال ابن السِّكيِّت : "وقال الأثرم! حدثنا أبو عبيدة قال: حدثنا أبو عمرو بن العلاء، قال: فحلان من العرب الشعراء. كانا يقويان ، النابغة وبشر بن أبي خازم، أما النابغة فمنذ دخل يثرب، غُنى بشعره، فلم يعد إلى الإقواْ، وأما بشر، فقال له سوادة أخوه، إنك تُقوى فقال! وما الإقواه فأنشده (الوافر)

ألم تَرَ أن طُول الدَّهر يبلى وَيْنسى مثل ما نسيتْ جُذامُ

وكانُوا قومنا فبغوا عَلينا فسِقْنَاهُم إلى بَلَد الشـــامِ

فرفع البيت الأول، وخفض الثاني، فلم يعد إليه ([2]).

وإذا كان هؤلاء الشعراء، وهم من فحول العصر الجاهلي، قد وقعوا في هذا الخطأ النحوي، ولم تكن اللغة العربية – بعد –قد شاع فيها اللحن والانحراف!

---

(١) ديوان النابغة ٢٩-٣٠ .

(٢) الخصائص ٤٢٠/١ وطبقات فحول الشعراء ٦٧-٦٨ .

فإن هذا الإقواء قد ظل ممتدًا وشائعًا بعد ذلك، سواء في عصر صدر الإسلام أم إلى نهاية عصر الاحتجاج: في منتصف القرن الثاني الهجري حيث كان إبراهيم بن هرمة، هو آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم.

ولقد كان الفرزدق ، وهو من شعراء العصر الأموي المشهورين ، كان يقوي في شعره ، وقد ذكرنا أن الإقواء خطأ نحوي، ومن ذلك قوله:([1]) (الطويل)

إليك أمير المؤمنينَ رَمَـت بِـنَا هُمومُ المُنى والهَوجلُ المتعسفُ

وعضَ زمان يا ابن مَروانَ لم يَدَعْ من المالِ إلا مُسحَتا أو مَجلفُ

وقد سمعه عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، ينشد ذلك، فقال له: على أي شيء ترفع أو مجلفُ؟! فقال له: على ما يسوءك وينوءك!

وكذلك أخطأ الفرزدق في قوله: ([2]) (البسيط)

مُستقبلين شَمالَ الشَّام تضربُنا بحاجبٍ كَنَديف القطْن مُنثُورُ

على عَمائِمنا تلقى وأرحلنا على زَواحف تُزجى مُخهارِيرُ

وأنكر عليه ابن أبي إسحاق ذلك – أيضًا – وقال له: أسأت، إنما هي: (ريرُ) وذلك قياس النحو في هذا الموضع، فلما ألحوا على الفرزدق: قال على زواحف نزجيها محاسيرُ" فترك الناس هذا ورجعوا إلى القول الأول.

---

(١) ديوان الفرزدق ٥٥٦

(٢) ديوان الفرزدق ٥٥٦

ولما ضاق الفرزدق ذرعًا، من هذه الملاحقة من عبد الله بن أبي إسحاق، عمد إلى ذكره بسوء في شعره ، وقال: (الطويل)

فلو كَان عبد الله مولَى هَجَوتُه ولكن عَبَد الله مولى مواليا

فقال له ابن أبي إسحاق : وقد لحنت في هذا أيضًا، وصوابه: مولى موالٍ(١) .

وهكذا يتأكد لنا، أن اللغة العربية الفصحى المشتركة ليست سليقة لكل العرب بل إن هناك من الخاصة منهم من الشعراء والأدباء من كان يقع في الخطأ واللحن والانحراف، ولسنا نوافق هؤلاء اللغويين من العرب القدماء الذين يرون أن اللغة العربية، لا يتقنها إلا العربي، كأنها حكر عليهم دون سواهم، وكأن الأمهات العربيات كن يرضعن أولادهن اللغة العربية في ألبانهن، أو أن اللغة العربية تتصل اتصالاً وثيقًا برمالهم أو بأطلالهم ودمنهم!!

أما اللغويون المحدثون فإنهم يرون أن السليقة، لا تعدو أن تكون مرحلة من مراحل إتقان اللغة، يصل إليها الخاصة من المتكلمين بعد أن يكونوا قد وصلوا بالدربة والمران والمعايشة إلى درجة أنهم يتكلمون اللغة صحيحة دون مجهود أو شعور.

فالسليقة اللغوية إذن "لا تعدو أن تكون مرحلة من مراحل اتقان اللغة عندما لا يكاد يشعر المتكلم بخصائص كلامه من حيث الأصوات، وأبنية الألفاظ، وتراكيب الجمل، فو يؤدي الكلام بصورة آليه، دون أن

---

(١) انظر : الشعر والشعراء ١/ ٨٩ وطبقات فحول الشعراء ١٦-١٧

يكون له أي اختيار في هذه النواحي بل تصدر منه دون تكلف أو تعمد وإنما على حسب ما سمع في صغره، ممن حوله من الكبار، وعلى نفس النهج الذي يسلكونه فالمرء يبدأ حياته مقلدًا للغة أبويه، وتصادفه عقبات وعثرات في هذا التقليد، ويمر بمراحل كثيرة ، قبل أن يصل إلى تلك التي تسمى بمرحلة السليقة، أي أن اكتساب اللغة يبدأ بالتقليد وكثرة المران، ولا يقال للطفل في أثناء تعلمه لغة أهله، وقبل أن يسيطر عليها : إنه يتكملها بالسليقة، فلا وراثة في السليقة اللغوية وإنما الأمر كله رهن بالاكتساب والتقليد والمران، وعلى حسب ما تشكله البيئة، فاللغة ملك من يتعلمها، لا أثر فيها للوراثة أو الجنس، فالطفل الذي يولد من أبوين مصريين، ثم ينشأ بعيدًا عنهما في بيئة إنجليزية، يشب وينمو كالإنجليز تمامًا من حيث اللغة(١): ومن ثم فإننا نستطيع أن نؤكد أن السليقة اللغوية، ليس فيها شيء غامض أو أمر سحري، كما كان يقول العلماء العرب القدامي، حيث ربطوا بين السليقة اللغوية والبداوة حينًا، والجنس العربي حينًا آخر، لدرجة أنهم كانوا يأخذون اللغة عن الأطفال والمجانين والنساء" (٢).

وبعد أن عرضنا لخصائص اللغة العربية وصفاتها: التي تميزها، وتؤهلها لأن تكون اللغة المشتركة ، يجدر بنا أن نجمل المنابع التي استمدت منها اللغة العربية ثروتها اللفظية، ومادتها اللغوية، التي تمثل بنيانها وأساليبها المتنوعة، وتتمثل تلك المنابع فيما يلي:

---

(١) انظر تفصيلات هذا الموضوع في مستقبل اللغة العربية ١٣-١٤ وكذا اللغة لفندريس ٢٩٨

(٢) انظر : المزهر ١/١٤٠

مصادر اللغة العربية الفصحى ومنابعها

١- القرآن الكريم

أجمع علماء اللغة على الأخذ من القرآن الكريم، وأن لغة القرآن تمثل الفصاحة والبيان، في أجلِّ صورها، وأعظم مبانيها، يقول البغدادي "كلامه – عزَّ اسمه- أفصح كلام وأبلغه، ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذه"(١) ويقول الفراء: "والكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر"(٢) بل إن بعضهم قد انتصر لما جاء في القرآن الكريم على غير أقيستهم فيما يطلقون عليه (الشاذ) حيث خصص ابن جني كتابه "المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، يقول فيه: غرضنا أن نرى وجه قوة ما يسمى الآن شاذًا ، وأنه ضارب في صحة الرواية بجرانه آخذ في سمت العربية مهلة ميدانه" (٣).

---

(١) خزانة الأدب ١/ ٤ وانظر : الاقتراح للسيوطي ١٥

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ١٤

(٣) المحتسب، لابن جني ١/ ٢٢

٢- الحديث النبوي الشريف:

لم يحظ الحديث النبوي الشريف، بالأخذ والاستشهاد بفصحاته، كما هو الحال في القرآن الكريم، ويرجع السبب في ذلك، إلى أن رواة الحديث النبوي كانوا من الأعاجم والمولدين، وأنه قد جاءت ألفاظه بلسان رواته.

والحقيقة أن عدم استشهاد الرواة وعلماء اللغة العرب بالحديث النبوي الشريف، أمر يثير الدهشة، فكثير من رواة الحديث الشريف هؤلاء كانوا ممن يحتج بفصاحتهم!

إن سيبويه في كتابه لم يستشهد بالحديث النبوي الشريف إلا في مواضع يسيرة للغاية، لا تبلغ عدد إصبع اليد الواحدة، في حين تصل شواهده الشعرية قرابة الألف بيت من الشعر غير أننا لا نعدم من علماء اللغة والنحو المتأخرين، من اختفى بالاستشهاد بالحديث النبوي الشريف ويأتي في مقدمة هؤلاء النحوي الأندلسي ابن خروف (ت ٦٠٩هـ) حيث أكثر من الاستشهاد به وكذلك الحال عند النحوي الأندلسي ابن مالك (ت ٦٧٢هـ).

فلقد أخذ ابن مالك قول رسول الله (ﷺ) " "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار" ليستشهد به على لغة "أكلوني البراغيث" تلك اللغة التي

تلحق الفعل ضمير التثنية أو الجمع إذا كان الفاعل مثنى أو مجموعًا، وقد أطلق سيبويه هذه التسمية على هذه اللغة في كتابه ([1]).

كما أن الإمام الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) قد اهتم بالاستشهاد بالحديث النبوي ، وبخاصة الأحاديث التي وجهت العناية إلى ألفاظه لأغراض خاصة بقصد البيان عن الفصاحة المحمدية، غير أنه لا يستشهد بالأحاديث النبوية التي وجه فيها العناية إلى المعنى ([2]).

- **الشعر العربي:**

من الجدير بالذكر أن اللغويين العرب، قد قسموا الشعراء العرب إلى أربع طبقات وهي:

١. **طبقة الجاهلين :**

ومنهم : امرؤ القيس وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى وعمرو بن كلثوم وغيرهم.

٢. **طبقة المخضرمين:**

وهم الذين شهدوا الجاهلية وصدر الإسلام، ومنهم: الخنساء وحسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهم.

---

(١) حيث يذكر ابن الضائع في شرح الجمل، أن ابن خروف كان يستشهد كثيرًا بالحديث النبوي الشريف انظر: خزانة الأدب ١/ ٥ ، كما يذكر يوهان فك أن ابن مالك كان أول من استشهد بالحديث الشريف انظر: العربية ٢٣٥ ، والحق أنه أول من أكثر الاستشهاد بالحديث انظر: فصول في فقه العربية ٩٨ حاشية ٤٧ .

(٢) مثال ذلك كتابه (ﷺ) إلى همدان، وكتابه إلى وائل بن حُجر، والأمثال النبوية ، انظر: الخزانة ٦/١

٣. **طبقة الإسلاميين:**

هم الذين ينتسبون إلى العصر الأموي، ومن أشهر الشعراء جرير الفرزدق والأخطل وغيرهم.

٤. **طبقة المولدين، أو ما يطلق عليهم: طبقة المحدثين.**

وهم الشعراء الذين يبدأ انتسابهم إلى العصر العباسي، ومن هؤلاء الشعراء: أبو نواس وبشار بن برد وأبو العتاهيه وغيرهم.

لقد اهتم علماء اللغة بشعراء الطبقة الأولى والثانية، وأجمعوا على الأخذ عنهم وعلى فصاحتهم التي لا نزاع فيها، كما أجازوا الآخذ عن شعراء الطبقة الثالثة، غير أن بعضهم يرفض الأخذ عنهم أما شعراء الطبقة الرابعة، فقد أجمعوا على عدم الاستشهاد بهم على الرغم من فصاحتهم وفي ذلك يقول البغدادي: "فالطبقتان الأوليان، يستشهد بشعرها إجماعًا، وأما الثالثة، فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها، وقد كان أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق والحسن البصري وعبد الله ابن شبرمه يلحِّنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم... في عدة أبيات أُخذت عليهم ظاهرًا، وكانوا يعدونهم من المولدين، لأنهم كانوا في عصرهم والمعاصرة حجاب"(١).

(١) خزانة الأدب ٦/١

أما أبو عمرو بن العلاء ، فإنه على الرغم من عدم أخذه عن الطبقة الثالثة، حيث يقول الأصمعي : "جلست إليه (أي إلى أبي عمرو بن العلاء) عشر حجج، فما سمعته يحتج ببيت إسلامي" (١) نجده يصرح بقوله: "لقد أحسن هذا المولد، حتى لقد هممت أن آمر صبياننا برواية شعره، يعني بذلك: شعر جرير والفرزدق فجعله مولدًا بالإضافة إلى شعراء الجاهلية والمخضرمين ، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين (٢) كما يذكر ابن قتيبة أن أبا عمرو بن العلاء كان يستحسن شعر الفرزدق وجرير والأخطل، وأنه كان على وشك الاستشهاد بهم، وإن لم يفعل ذلك يقول ابن قتيبة: "كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم ، يعدون محدثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثر هذا المحدث وحسن، حتى لقد هممت بروايته" (٣) ولم يبدأ بالاستشهاد بشعراء أبي تمام، سوى الزمخشري ، في كتابه الكشاف، عندما استشهد بشعر أبي تمام، وهو يصرح بذلك قائلاً: "وهو إن كان محدثًا لا يستشهد بشعره في اللغة، فهو من علماء العربية، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة فيقنعون بذلك، لوثوقهم بروايته واتقانه" (٤).

---

(١) العمدة لابن رشيق ٥٦/١

(٢) العمدة، لابن رشيق ٥٦/١

(٣) الشعر والشعراء ٦٣/١

(٤) الكشاف ٢٢/١ وانظر : الاقتراح للسيوطي ٢٦ ، ٢٧

ويجمع العلماء واللغويون على أن "أول الشعراء المحدثين هو بشار بن برد. ونقل ثعلب عن الأصمعي قال: ختم الشعر بإبراهيم بن هرمة وهو آخر الحجج" (١).

أما بالنسبة للنثر، فإن علماء اللغة وجامعيها، قد وضعوا شروطًا شديدة، لفصيح الكلام وسليمه وقد حددوا الأخذ عن قبائل بعينها لا يأخذون عن سواها من سائر قبائلهم وقد ذكر الفارابي، في كتابه: الألفاظ والحروف نصًا بيذكر فيه قبائل العرب ، الذي يعتد بفصاحتهم ، ويؤخذ عنهم اللسان العربي، حيث يقول: "كانت قريش أجود العرب انتقادًا للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا وإبانة عما في النفس، والذين عنهم ثقلت اللغة العربية، وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربي، من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أُخذ معظمه وعليهم أتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ من لخم ولا من جذام، فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر

(١) الاقتراح ٢٧٩ ، وشرح شواهد الشافية ٢٥/٤

والقبط، ولا من قضاعة ولا من غسان ولا إياد، فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرءون في صلاتهم بغير العربية، ولا من تغلب ولا النمر، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية، ولا من بكر، لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس، ولا من عبد القيس، لأنهم كانوا سكان البحرين، مخالطين للهند والفرس ولا من أزد عمان، لمخالطتهم للهند والفرس، ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب، قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم، والذي نقل اللغة واللسان العربي من هؤلاء وأثبتها في كتاب، وصيرها علمًا وصناعة هم أهل الكوفة والبصرة فقط من بين أمصار العرب" (١).

وأما ابن خلدون ، فإنه يذكر في مقدمة كتابه: "العبر وديوان المبتدأ والخبر" أن قريشًا هي أفصح قبائل العرب، ويعلل لفصاحتهم في فصل بعنوان : (فصل في أن اللغة ملكة صناعية) "ولهذا كانت لغة قريش، أفصح اللغات وأصرحها، لبعدهم عن بلاد العجم، من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وإياد وقضاعة، وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة

(١) الاقتراح ١٩ ، والمزهر ٢١١/١

الملكة، بمخالطة الأعاجم، وعلى نسبة بعضهم من قريش، كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية ([1]).

ونستطيع أن نلخص مما سبق من نصوص، الأسس التي اعتمدها الرواة في الأخذ عن قبائل العرب في أساسين اثنين هما ([2]):

١- **بداوة القبائل العربية وبعدها عن أطراف الجزيرة:** وكان أساس حكم اللغويين على فصاحة القبائل العربية، هو بمقدار توغلهم في البداوة والبعد عن أطراف الجزيرة ونواحيها.

٢- **قرب القبائل العربية من قبيلة قريش:** فقد جاء حكم اللغويين لفصاحة قبائل العرب القريبة من قبيلة قريش، التي تعد عندهم افصح القبائل العربية، التي نزل بلغتها القرآن الكريم.

فهذا هو ابن جني (ت٣٩٢هـ) يفرد في خصائصه بابا بعنوان: "باب ترك الأخذ من أهل المدر، كما أخذ عن أهل الوبر" ([3]) ولعل في مفاخرة لغوي البصرة ونحاتها، على لغوي الكوفة ونحاتها لدليل على ذلك، حيث يقول قائلهم: "نحن نأخذ اللغة، عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز وباعة الكواميخ ([4]).

---

(١) المقدمة ٦٤٩
(٢) انظر فصول في فقه العربية ١٠٥
(٣) الخصائص ٥/٢
(٤) الاقتراح للسيوطي ٨٤

لقد كان نحاة البصرة ولغويوها يحتفلون احتفالاً مبالغًا فيه، بتحديد البيئة المكانية، تحديدًا صارمًا بحيث لا يسمحون لأنفسهم بالأخذ عن الأعراب ، إلا إذا كانوا من هؤلاء البدو القح، الذين لم تؤثر فيهم عوامل الفساد أو اللحن والإنحراف.

في حين نجد نحاة الكوفة ولغوييها، يتسامحون في تحديد البيئة المكانية فهم يعتدون بكل عربي، من أي قبيلة كان إلى الدرجة التي جعلت الكسائي- من كبار علمائهم- يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة، فيجعله أصلاً ، ويقيس عليه، ويؤكد ذلك أبو زيد الأنصاري بقوله:/ قدم علينا الكسائي البصرة، فلقى عيسى والخليل وغيرهما، وأخذ منهم نحوًا كثيرًا، ثم صارإلى بغداد، فلقى أعراب الحطمة، فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله"([1]) والحق أننا لا نكاد نتفق مع هؤلاء البصريين، ومع تشددهم في الاحتفاء بالبيئة المكانية إلى الدرجة التي جعلتهم يأخذون عن صبيانها ونسائها، بل ومن هم أدنى من ذلك في التفكير ([2]).

كما أننا لا نتفق مع هؤلاء الذين أطلقوا الحبل على الغارب، على النحو الذي نهجه الكوفيون!

---

(١) أخبار النحويين ٦٨ وكذا الفهرست ٩٢ ، وكذا الاقتراح ٨٤

(٢) معجم الأدباء ١٨٢/١٣ وكذا إنباه الرواة ٢٧٤/٢

فالبصريون على الرغم من حرصهم على الدقة والفصاحة، نجدهم وقد خلطوا بين مستويات الكلام العادي، ولهجات الخطاب اليومية ، واللغة الفصحى المشتركة، حيث إن كل ما تكلم به الأعراب من قبائلهم، يعد من وجهة نظرهم صحيحًا فصيحًا، ولم يدركوا أن ثمة اختلافًا جوهريًا بين اللهجات والفصحى! ومن ثم، فقد جاءت تأويلاتهم لتلك الأمثلة الشاذة المتناثرة بين كتب النحو.

أما الكوفيون ، فكان الخلط واضحًا بينًا في منهجهم المتمثل في السماح بالأخذ من كل ما هو عربي، ولا يمكننا أن نقدح- بأي حال من الأحوال- في جهود هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين أسهموا بقرائحهم وجهودهم، في تصنيف علم العربية، ومحاولاتهم الجادة المخلصة في العمل على حفظ اللغة العربية وحمايتها من اللحن والاندثار.

الفصل الثاني

اللهجات العربية واللغات السامية

تمهيد:

تحدثنا فيما مضى عن اللغة العربية الفصحى، باعتبارها اللغة المشتركة للناطقين بالعربية، من المحيط إلى الخليج وألقينا الضوء على خصائص تلك اللغة ومميزاتها وذكرنا مدى الحرص الشديد من العلماء العرب القدامى، في المحافظة على اللغة العربية الفصحى، فقد أحاطوها بسياجين، يكفلان لها الصحة والسلامة، وهذان السياجان هما:

١- تحديد البيئة المكانية.

٢- تحديد البيئة الزمانية.

لقد كان حرص العلماء العرب، على اللغة العربية الفصحى ، باعتبارها لغة القرآن الكريم، نابعًا من خوفهم على هذه اللغة من آفتى اللحن والانحراف عن مستواها الصوابي الفصيح، فتبتعد عن هويتها ، وتتسع الهوة بين لغة القرآن الكريم وأفهام العرب وعقولهم.

ومن المعلوم أن لهجة قريش، قد جمعت جلَّ خصائص اللغة العربية الفصحى أو كلها، مما دعا العديد من العلماء واللغويين، أن يجعلوا اللغة العربية مرادفة للهجة قريش، إذا لم تخالف لهجة قريش اللغة العربية

الفصحى إلا في النذر اليسير للغاية، ويتمثل ذلك في تسهيلهم الهمزة، في حين نجدها وقد جاءت في القرآن منبورة كما هو الحال في لهجة تميم، التي تنبر الهمزة وتحققها نطقًا.

والحق ، فإن لهجة قريش، هي النموذج المطابق والممثل للغة العربية الفصحى، يؤكد ذلك ابن فارس بقوله: "أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم، أن قريشًا أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة، وذلك أن الله جل ثناؤه، اختارهم من جميع العرب، اصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمدًا (ﷺ) ، فجعل قريشا، مكان حرمه، وجيران بيته الحرام وولاته، فكانت وفود العرب، من حجاجها وغيرهم، يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمرهم، وكانت قريش مع فصاحتها، وحسن لغاتها، ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب، تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب"(١).

ويؤكد الفراء أن قريشًا ، قد أتيح لها من ميزة وفود الحجيج عليها، ما مكنها من انتقاء الأحسن من كلامهم، فامتازوا عن سائر قبائل الجزيرة، حيث يقول: "كانت العرب تحضر الموسم في كل عام، وتحج البيت في

(١) الصباحي ٥٢ وكذا المزهر ٢١٠/١ مختصرا .

الجاهلية، وقريش يسمعون لغات جميع العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا أفصح العرب وخلت لغاتهم من مستبشع اللغات، ومستقبح الألفاظ ([1]).

(١) الاقتراح ٨٣ وكذا المزهر ٢١١/١

اللهجات العربية المشتركة في خصائصها مع اللغات السامية وألقابها

١- ألقاب اللهجات العربية

تكاد معظم آراء العلماء تجمع على أن ألقاب اللهجات العربية، لم تكن معروفة في الجاهلية، وأن أول من قام بهذا التلقيب، رجل من "جَرْم" كان موجودًا في مجلس الخليفة معاوية بن أبي سفيان، ولم تورد الروايات اسم هذا الرجل.

ولعل الجاحظ، هو أول من ذكر خبر الرجل في كتابه: البيان والتبيين، إذا يقول: "وقال معاوية يومًا: من أفصح الناس؟ فقال قائل: قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات، وتيامنوا عن كسكسة بكر ليست لهم غمغمة قضاعة، ولا طمطانية حمير قال: من هم ؟ قال: قريش . قال: ممن أنت؟ قال: من جرم . قال : اجلس" (١).

وقد اختلفت روايات العلماء، حول عدد القبائل وألقاب لهجاتها ، ومن هذه الروايات ، ما يورده ابن عبد ربه، عن الأصمعي ، إذ يقول: "قال معاوية: أي الناس أفصح ؟ فقال رجل من السماط: يا أمير المؤمنين ، قوم ارتفعوا عن رتة العراق، وتياسروا عن كسكسة بكر (في الأصل: كشكشة بكر) وتيامنوا عن شنشنة تغلب، وليست لهم "غمغمة" قضاعة، ولا طمطمانية حمير. قال: من هم ؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين ؛ قريش. قال:

---

(١) البيان والتبيين ٢١٢/٣

صدقت: فمن أنت؟ قال من جرم . قال الأصمعي : وجرم فصحى العرب" ([1]).

ثمة رواية أخرى، يرويها لنا الحريري عن الأصمعي، يذكر فيها الأصمعي "أن معاوية قال ذات يوم لجلسائه: من أفصح الناس؟ فقام رجل من السماط، فقال: قوم تباعدوا عن عنعنة تميم، وتلتلة بهراء وكشكشة ربيعة وكسكسة بكر، وليس فيهم غمغمة قضاعة، ولا طمطمانية حمير. فقال: من أولئك ؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين" ([2]).

أما البلوى، فإنه يقول : "ويروى أن معاوية قال يومًا: أي الناس أفصح؟ فقام رجل من السماط، فقال له: يا أمير المؤمنين ، قوم ارتفعوا عن فراتية العراق، وتياسروا عن كسكسة بكر (في الأصل كشكشة) وتيامنوا عن عنعنة تميم، وليس فيهم غمغمة قضاعة ولا طمطانية حمير. قال: من هم؟ قال: قومك قريش: (٣) كما روى لنا ثعلب في مجالسه قوله: "ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم وتلتلة بهراء وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن وتضجع قيس وعجرفية ضبة" ([4]).

أما الفراء ، فإنه يأتينا برواية تتفق في نصها مع الروايات السابقة، في نسبة ألقاب اللهجات العربية إلى قبائلها، في حين نجده يختلف عنها جميعًا

---

(١) العقد الفريد ٤٧٥/٢ ، ٣٢٠/٢

(٢) درة الغواص ١٤ وكذا خزانة الأدب ٥٩٦/٤

(٣) ألف باء لليلوي ٤٣٢/٢

(٤) مجالس ثعلب ٨٠١/١ كذا: سر صناعة الإعراب ٢٣٤/١ والخصائص ١١/٢ والمزهر ٢١١/١ والخزانة ٤٩٥/٤

في أنه ينسب الفصاحة إلى قبيلة جرم، حيث يقول: " وحدثني من لا أحصى من أصحابنا عن الأصمعي، عن شعبة، عن قتادة، قال: قال لي معاوية يومًا: من أفصح الناس؟ فقام رجل من السماط، فقال: قوم تباعدوا عن فراتية العراق، وتيامنوا عن كشكشة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر، ليس فيهم غمغمة قضاعة ولا طمطانية حمير. فقال له معاوية: من أولئك ؟ فقال : قومي يا أمير المؤمنين، فقال له معاوية: من أنت؟ قال: أنا رجل من جَرْم قال الأصمعي: وجَرْم من فصحاء الناس" (١).

وهكذا ترى أن الروايات تكاد تجمع على نسبة الفصاحة إلى قريش دون سائر القبائل العربية، وليس هناك من يخالف ذلك الرأي الجامع، سوى ما أورده المبرد في روايته في كتابه الكامل.

ويرى أستاذنا الدكتور/ رمضان عبد التواف ، أن هذه الرواية الواحدة لا تنهض دليلاً على الاعتداد بها، أو وضعها في الحسبان، حيث يقول: "ولكن من يدري ؟ فلعلها رواية واحدة، وأصابها التحريف، في قوله: "قومي يا أمير المؤمنين "بدلاً من: قومك يا أمير المؤمنين" (٢).

والملاحظ أن الرجل الجرمي، لم يذكر قبيلة قريش في كلامه في حين ذكر- طبقًا لرواية المبرد- اسم قبيلته ، قائلاً : وجَرْم من فصحاء الناس..

---

(١) الكامل للمبرد ٢/٢٢٣

(٢) فصول في فقه العربية ١١٩

اللهجات العربية
واللغات السامية

قيمة اللهجات العربية في الحفاظ على الخصائص اللغوية السامية :

حيث يجدر بنا أن نوضح قيمة الظواهر اللهجية وألقابها، ومواطن شيوعها في قبائلها المختلفة، في أنحاء الجزيرة العربية، ومدى إسهاما في صنع الترابط بين اللغة العربية وأخواتها من اللغات السامية ، وأن هذه اللهجات قد احتفظت بكثير من الخصائص اللغوية للغات السامية بوجه عام واللغة العربية بوجه خاص.

لقد وقفت تلك المقارنة على أن ظاهرة الاستنطاء، التي تشيع في قبائل غربي الجزيرة العربية من اليمن جنوبًا إلى الشام شمالاً، على امتداد طريق رحلة الشتاء والصيف ؛ التي كانت قبائل قريش تجتازها للإتيان بصنوف الطعام والشراب والملبس لأهل مكة وقاطنيها تلك الرحلات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤﴾ (سورة قريش ١-٤/ ١٠٦) .

حيث وردت تلك الظاهرة المتمثلة في قلب عين الفعل: أعطى نوتًا، فيقولون: أنطى، في أعطى، وأن هذا القلب موجود في الفعل العبري : māṭ، بمعنى أعطى، كما أنه موجود في كل من اللغة الآرامية والأثيوبية ، وكذا الحال في الأمهرية، مع تحول النون ميمًا في الأثيوبية والأمهرية ، حيث تؤكد تلك المقارنة العلاقة بين تلك الظاهرة في نطق الفعل، أعطى بالنون هكذا : أنطى في مواطن شيوعها، وبين اللغات السامية.

وكذلك في ظاهرة التلتلة؛ التي تنسب إلى قبيلة بهراء، وتشيع في معظم القبائل العربية، فيما عدا بلاد الحجاز ، تلك الظاهرة التي تعنى كسر حرف المضارعة، على النحو الذي تفصله تلك الدراسة، تعدُّ إحدى الظواهر اللغوية الشائعة – أيضًا- في اللغات السامية في اللغة العبرية والسريانية والحبشية، ويرى أستاذ الدكتور/ رمضان عبد التواب – أنها ظاهرة سامية قديمة وأصيلة في اللغات السامية، وأن الفتح في اللغة العربية الفصحى حادث وجديد(١).

كما أن ظاهرة الطمطانية التي تنسب إلى قبائل حمير وطيئ والأزد، والتي يقلب فيها "لام" أل التعريف ميمًا، حيث تقدم الدراسة عرضًا لأماكن شيوعها، وأمثلة توضح كيفية حدوثها، وأنها تبين أن تلك الظاهرة تمثل امتدادًا لها في اللغات السامية الأخرى، بالتعريف في اللغات اليمينة القديمة نون نهائية، وأداة التعريف في الثمودية والصفوية هي الهاء واللام (هل) أو النون (هن)، وثمة علاقة صوتية بين تلك الأصوات: اللام- والنون- حيث تتبادل مواضعها، اعتبارها من الأصوات المائعة التي يشيع فيها هذا التبادل .

أما ظاهرة العجعجة : التي تنسب إلى قبيلة قضاعة، التي تعرض لها الدراسة بالتوضيح، حيث توضح أن العجعجة تعني قلب الياء جيمًا، وهل هي الياء المشددة أم المخففة ، كما قدمت للشواهد التي تؤكدها ، وأن هذه الظاهرة ، تُعد من الظواهر الصوتية السامية؛ التي تشيع في بلاد الحبشة ، وفي نقوش اللغات اللحيانية.

---

(١) انظر: فصول في فقه العربية ١٢٥-١٢٦

أما ظاهرة العنعنة، التي تنسب إلى قبائل تميم، وتنسب – أيضًا- إلى قبائل قيس، فقد تناولتها الدراسة- أيضًا- باعتبارها واحدة من الظواهر اللهجية ، التي تمثل امتدادًا للغات السامية، فقد وردت أمثلة لها في اللغة الحبشية، وقدمت الدراسة لشروط حدوثها والشواهد التي تؤكدها.

أما ظاهرة الفخفخة، التي تنسب إلى قبيلة هذيل، التي مثل لها علماء اللغة بما ورد عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وأنه قد سمع رجلاً يقرأ: (عتى حين) في قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ (سورة المؤمنون ٢٣/ ٢٥) فقال: من أقرأك ؟ فقال: ابن مسعود، فكتب إليه: إن الله عز وجل أنزل هذا القرآن، فجعله عربيًا، وأنزله بلغة قريش، فاقرئ الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل والسلام. (١) قدمت الدراسة عرضًا حول تلك الظاهرة، والشواهد التي توضح شيوعها في التراث اللغوي العربي، والقرآن الكريم، وأنها ظاهرة صوتية تشيع في العربية الجنوبية وكذا في اللغة العبرية ، مثل قولهم (بيت عور) في اللهجة الفلسطينية ، في مقابل (بيت حورت bēt ḥōrōm وكلمة (عصور) في مقابل (حاصور) ḥasōr كما وضحت الدراسة للقوانين الصوتية التي تبين أن قلب الحاء عينًا ، هو من قبل جهر الحاء فتتحول إلى عين، فكلاهما من الأصوات الحلقية الاحتكاكية المرققة، غير أن الحاء مهموسة، والعين مهجورة.

---

(١) المحتسب لابن جني ٣٤٣/١ ، وإيضاح الوقف والابتداء ، لابن الأنباري ١٣

ثمة ظواهر لهجية أخرى تمثل امتدادًا للغات السامية، في تلك اللهجات العربية، وأن هذه اللهجات – كما أسلفنا- قد حافظت على الخصائص اللغوية السامية، من بينها قلب الياء ميمًا والعكس، وأن الأزهري قد سمع حنظليًا ينطق كلمة (المصطبة) (المصطفَّة) بتشديد الفاء(١) وعرضت الدراسة لتلك الظاهرة، وأنها وردت في اللغة الحبشية، وأنها وردت باءً مهموسة (P) في اللغات السامية الشمالية، كاللغة العبرية والآرامية والأكادية، وقدمت الدراسة أمثلة لهذا القلب في تلك اللغات السامية(٢).

كما أشارت الدراسة إلى ظاهرة تسهيل الهمزة، وهمز الحروف المسهلة (الحركات) وأنها تشيع في القبائل الحجازية ، التي تسهل الهمزة، في حين ينسب الهمز إلى تميم ، فذكرت الدراسة هذا التسهيل للهمزة أو همز الحروف المسهلة (الحركات) أنه من قبيل المبالغة في التفصح أو ما يطلق عليه الحذلقة اللغوية، وأنه يمثل امتدادًا لما ورد في اللغة الأوجريتية والآرامية الإنجلية والمنوية والفتبانية وكذا في اللغة العبرية، وأن لغة طيئ من ثمة تتفق مع اللغات السامية الشمالية في ذلك ؟(٣)

كما تناولت الدراسة اسم الموصول (ذو) في لهجات طيئ وأنه يمثل امتدادًا مع اللغات السامية ، فعرضت لصورة وأنواعه وأحواله، كما قدمت

---

(١) انظر: لسان العرب ١١/٢

(٢) انظر: اللغة لـڤندريس ٨٠ وكذا التطور اللغوي ٧٩-٨٤

(٣) انظر: اللهجات العربية الغربية ٣٥٦

لأمثلة ونماذج متنوعة من شواهد شعرية وغيرها، كما عرضت – أيضًا- لاستعمال اللغة العبرية لـ (زو Zō) التي تقابل : ذو : العربية، وأن (زو Zo) العبرية قد اختلطت مع (ريه zyh) في اللغة العبرية – أيضًا- ([1]).

تناولت الدراسة – أيضًا- ظاهرة الوقوف على تاء التأنيث ؛ التي تشبع في قبيلة طيئ ، وقدمت للأمثلة والنماذج والشواهد الشعرية التي تؤكد ذلك، وأن كلاً من اللغتين : الأكادية والحبشية مما تشيع فيهما هذا الوقف على تاء التأنيث، وأن ذلك- أيضًا- يشيع في اللغة الحميرية.

تناولت الدراسة – كذلك – لغة أكلوني البراغيث ؛ المنسوبة إلى قبيلة طيئ التي تشبع في لهجات الخطاب قديمًا وحديثًا ، وأنها تمثل الأصل في اللغات السامية، وأن أستاذ الدكتور / رمضان عبد التواب – يرى أن هذه الظاهرة ، تُعدُّ من الركام اللغوي، أي من قضايا الظواهر اللغوية المندثرة، حيث لا تمحو الظاهرة القديمة دفعة، بل يبقى منها بعض الأمثلة ، التي تبرهن على وجودها على الرغم من اندثارها([2])

كما تناولت الدراسة ظاهرة اندثار الأصوات الأسنانية ، حيث تتقلب تلك الأصوات (الثاء والذال والظاء) إلى أصوات قريبة منها في المخرج، أو متماثلة لها في الصفات، فتناولت الدراسة قلب الثاء تاء([3]) وقلب الذال

---

(١) انظر: اللهجات العربية الغربية ٣٠٩

(٢) بحوث ومقالات في اللغة وما بعدها ، وكذا فصول في الفقه العربية ١٢٥-١٢٦

(٣) انظر: التطور اللغوي ٨٣-٨٤

دالاً، وقلب الثاء سينًا، وقلب الظاء ضادًا ، وأن هذا القلب إنما يحدث في إطار قانون السهولة والتفسير ، حيث تتطلب هذه الأصوات الثلاثة وضع طرف اللسان بين الأسنان العليا والسفلى، بما يمثل جهدًا عضليًا، تخلصت منه لغة الكلام والخطاب العامي، رغبة في التخلص من هذا المجهود العضلي، وقدمت الدراسة الأمثلة والنماذج لهذا التحول الصوتي وعوامله وقوانينه الصوتية(١) وذكرت الدراسة أن هذا التحول لهذه الأصوات الأسنانية، إنما يُعدُّ امتدادًا لما حدث لها من تحول في اللغات السامية، حيث تحولت هذه الأصوات جميعها في اللغات السامية بعامة فيما عدا اللغة العربية الفصحى (الشمالية والجنوبية) أي الحميرية، فقد تحولت الثاء سينًا في اللغة الحبشية وتحولت شينًا في اللغتين العبرية والأكادية، وتحولت تاء في الآرامية، كما تحولت الذال إلى زاي في الحبشية والعبرية والأكادية ، وتحولت دالاً في الآرامية، كما تحولت الظاء صادًا في الحبشية والعبرية والأكادية ، وإلى طاء في الآرامية

وبعد ... فإن هذا المبحث يقدم عرضًا تفصيليًا حول تلك الظواهر اللهجية وألقابها، كما وردت في روايات العلماء العرب حول ألقابها، التي ودرت على لسان الرجل الجرمي، في حضرة الخليفة معاوية بن أبي سفيان، تقدم الدراسة للمقصود بهذه الألقاب وتعريفات العلماء لها والقبائل العربية

(١) انظر: التطور اللغوي ٨٥ ط٢

التي تنسب إليها أو تشيع فيها، كما تقدم للشواهد التي تؤكد ورودها سواء أكانت من آيات الذكر الحكيم، القرآن الكريم، أم كانت أشعارًا أم نصوصًا نثرية ونحوها من النصوص اللغوية.

وتحرص الدراسة على بيان مدى محافظة تلك الظواهر اللهجية على الخصائص السامية في اللغات السامية، وأن النهوض بدراستها يُعد مطلبًا علميًا جديرًا بالاهتمام وتقدم لهذه الظواهر اللهجية وألقابها على النحو الآتي: